أحوال مصرية

ربيع 2007

تاريخ الصحافة المصرية

د. رءوف عباس

لعبت مصر دوراً مركزياً فى تاريخ الصحافة العربية فعلى أرضها ظهرت ابرز الصحف العربية الأول، وبفضل الدعم المالى لحكامها (وخاصة الخديوى إسماعيل) صدرت بعض الصحف الهامة فى بلاد الشام بل وحاضرة الدولة العثمانية (الأستانه) ذاتها فكما سنرى ارتبط تاريخ الصحافة فى مصر بمشروع بناء الدولة العصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وبعد عقدين من الزمان سوف يبلغ عمر الصحافة فى مصر القرنين (عام 2028)، وقطعت الصحافة المصرية –حتى الآن–شوطاً بعيداً على طريق التطور،ولعلها تستطيع أن تجد لنفسها مكاناً متميزاً بين صحافة العالم عندما يحين موعد الاحتفال ببلوغها المائتى عام من عمرها.

بداية الصحافة فى مصر

ربما استوقف التحديد الزمنى السابق لعمر الصحافة فى مصر بعض المهتمين بتاريخ الصحافة المصرية، ليتساءلوا عن إهمالنا للصحف التى أصدرتها الحملة الفرنسية فى مصر (1798–1801)، والتى اتخذ منها بعض مؤرخى الصحافة المصرية معلما لظهور الصحافة فى مصر. ومن جانبنا لا نرى فى تلك الصحف الفرنسية معلماً لبداية الصحافة المصرية لأنها صدرت بالفرنسية وحررت بأقلام فرنسية ووجهت خطابها الإعلامى إلى رجال الحملة الفرنسية جنوداً وضباطاً، ولم تهتم الحملة بإصدار صحيفة عربية فلم تكن الحاجة تدعوها لذلك رغم أنها حملت معها إلى مصر أول مطبعة حديثة بحروف عربية استخدمتها فى طباعة البيانات والتعليمات التى وجهت إلى المصريين، وعلقت بالأماكن العامة وخاصة أبواب المساجد ولم تكن تلك الملصقات المطبوعة تتصل بالصحف من قريب أو بعيد وتقضى ما يزيد على ربع القرن قبل صدور الوقائع المصرية عام 1828 الذى كان –بحق– تاريخاً لميلاد الصحافة فى مصر على يد محمد على باشا.

ولم تعرف مصر –أو غيرها من البلاد الشرقية– قبل هذا التاريخ وسائط مكتوبة (أو مخطوطة) لنقل الأخبار المحلية والإقليمية إلى من يعنيهم أمر الوقوف عليها، على نحو ما عرفته المدن الإيطالية التجارية (وخاصة البندقية) منذ القرن الخامس عشر رغم ما كان بين تلك المدن ومصر والشام من صلات تجارية متينة وقديمة، فتلك النشرات المخطوطة كانت تقدم من الأخبار ما يهم التجار وتعتمد على ما ينقله المسافرون معهم من أخبار تتصل بايطاليا وبلاد أوروبا الأخرى وبلاد البحر المتوسط ويرى محرر النشرة (وهو فى الغالب فرد واحد)، أن من المهم إيصالها إلى المشتركين فى نشرته المخطوطة ثم أصبحت تلك النشرات مطبوعة، وانتشر ت فى وسط وغرب أوروبا فى القرن السادس عشر، لتتطور وتتسع مادتها التحريرية، فتتحول إلى دورية نصف سنوية، ثم ربع سنوية، ثم شهرية، ثم أسبوعية مع مطلع القرن السابع عشر، وتعبر المحيط الأطلنطى إلى العالم الجديد، وتصبح هناك صحف يومية أيضا عند ختام ذلك القرن.

هذا التطور اقترن بتطور المطبعة وتحول مهمتها من إصدار المطبوعات التجارية والدينية إلى خوض غمار تلك الأدوات الإعلامية المطبوعة التى قادت إلى ظهور الصحافة مع تطور الرأسمالية التجارية ثم الصناعية، وتطور طرق المواصلات والاتصال .

وربما تساءل بعض من يتخذون من التراث التاريخى العربى أصولا لكل ما عرفته الدنيا من البدع الحديثة عن أسباب إغفال الكاتب لأحد أشكال الكتابة الخبرية التراثية التى عرفت بالحوليات وربما راح هؤلاء يعددون أسماء العديد من كتاب الحوليات وكتبهم على مر العصور الإسلامية الوسيطة، وصولاً إلى عبد الرحمن الجبرتى، فلماذا ينكر الكاتب هذا الأصل الإسلامى للصحافة طالما كانت كتب الحوليات مصدراً لاستقاءالأخبار ؟ ولماذا هذا الاحتفاء بتلك النشرات المخطوطة التى كتبها الفرنجة وتداولوها، وا ٍنكار فضل حوليات المسلمين ؟!

حقاً كانت الحوليات مصدراً للأخبار ولكنها –جميعا – قدمت أخبار عفاً عليها الزمن، مضى عهدها وانقضى، فهى مادة تاريخية تتعلق بالماضى، ولا تفيد من وقعت فى يده مخطوطة إلا فى الوقوف على ما كانت عليه الأحوال. أما الأخبار الجارية فكان الناس يتناقلونها شفاهة، وقد تصل بعد انقضاء صلاحيتها، ولا وجه للشبه بين الحوليات عندنا و النشرات المخطوطة (ثم المطبوعة) التى كانت جنين الصحافة الحديثة وا ٍذا كانت النشرات المخطوطة كتبت للخاصة، فان الطباعة وسعت من دائرة قراء الدوريات لتشمل الطبقة الوسطى .

وحرى بالذكر هنا أن مصر لم تكن أول بلد يعرف الطباعة الحديثة، فقد جاءت أول مطبعة إلى إستانبول فى أواخر القران الخامس عشر، جلبها احد اليهود لطباعة الكتاب المقدس بالحروف العبرية، وتأخر وصول أول مطبعة بحروف عربية إلى إستانبول إلى العقد الأخير من القرن الثامن عشر، بعدما يقرب من القرن على ظهور أول مطبعة عربية فى حلب (عام 1702) أنشأها احد البطاركة، وكانت المطبعة الثانية فى قرية الشوير بلبنان (عام 1732) تخص احد الأديرة الكاثوليكية، ثم انشأ الأرثوذكس فى بيروت مطبعة عربية (عام 1750) . وقد استخدمت تلك المطابع لخدمة الأغراض الدينية بالدرجة الأولى، والتجارية بالدرجة الثانية.

أما مصر فم تعرف الحرف العربى المطبوع إلا من خلال منشورات مطبعة الحملة الفرنسية التى غادرت البلاد معها (1801)، وكانت أول مطبعة عربية / تركية (حديثة) هى تلك التى أقامها محمد على بالقلعة لخدمة المتطلبات الإدارية لنسمع عنها –لأول مرة– حوالى عام 1815، ويليها تأسيس مطبعة بولاق التى كانت حجر الزاوية فى تطور مصر الثقافى عامة، وكانت الوقائع المصرية أول صحيفة مصرية أخرجتها تلك المطبعة.

الوقائع المصرية وميلاد الصحافة المصرية

لما كان محمد على باشا يتخذ من الإدارة المركزية القوية حجر الزاوية لمشروعة السياسى، الذى تحولت مهمة الإدارة فيه من الجباية وحفظ الأمن وإقامة العدل فقط إلى تضمين الإنتاج والخدمات للمهام السابقة فى ظل حرصه على إيجاد أداة اتصال تجعل أركان الإدارة على علم بما يجرى وتجعل كل طرف فيها على معرفة بالصلة بين مهامه ومهام غيره من الأطراف المعنية . ولهذا الغرض انشأ محمد على باشا "قلم الجرنال" ليعد خلاصة بكل ما يدور على ارض مصر من أحداث تتصل بالإنتاج الزراعى والصناعى والتجارة والإدارة بشتى فروعها لتتجمع لدى الباشا صورة كاملة عن ما يجرى وما تم انجازه، بما يتيح له الوقوف على كل صغيرة وكبيرة فى البلاد، وكان "الجرنال" يقدم لمحمد على مخطوطاً، ثم أمر بطباعة نسخ منه بالعربية والتركية فى مطبعة القلعة توزع على كبار الموظفين وحكام الأقاليم، ولم يكن صدروه محدداً بزمن معين، بل وفق ما يأمر به الباشا، ولكن لم تتجاوز الفترة بين صدور "جرنال" وآخر العشرة أيام.

واستمر الحال على هذا المنوال نحو عشرة سنوات، فكان يصدر من الجرنال نحو المائة نسخة، وأصبح يومياً، يتضمن إلى جانب الأخبار الرسمية الحكومية موضوعاً ترفيهياً مقتبساً من "ألف ليلة وليلة" أو غيرها من كتب الطرائف التراثية حتى قرر الباشا تحويل هذه الدورية إلى جريدة تسمى "الوقائع المصرية" تجمع بين أخبار الحكومة، وما يتصل بحياة المحكومين " الرعية"، لتوجه إلى كافة الناس، وكان عدد النسخ المطبوعة منها لا يتجاوز 600 نسخة توزع على العلماء وتلاميذ المدارس الخصوصية (العليا)، وكبار

الموظفين المدنين والعسكريين فى مصر والحجاز والشام والسودان وكريت، وأتيح لمن يتقاضى مرتبا يصل إلى ألف قرش شهرياً (عشرة جنيها) أن يكون من المشتركين فى الجريدة، كل ذلك فى حدود الستمائة نسخة المطبوعة، فلم تكن الجريدة متاحة للبيع أو الاشتراك لعامة الجمهور، كما أن من كان راتبه عشرة جنيهات شهريا يعد من عناصر الإدارة الوسطى، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون صغار الموظفين على إطلاع عليها من خلال النسخ التى تصل لرؤسائهم .

وكانت الوقائع المصرية ثنائية اللغة (عربية/تركية)، ثم فصلت النسخة العربية عن التركية، فأصبحت هناك طبعتان للعدد الواحد، احدهما عربية والأخرى تركية، وأخيراً اختفت النسخة التركية فى عهد الخديوى إسماعيل (1863–1879)، الذى أعاد إصدار "الوقائع المصرية" بانتظام بعدما تعطلت حيناً فى عهد عباس باشا الأول (1848 – 1854)، وصدرت دون انتظام فى عهد محمد سعيد باشا (1854–1863)، ولكن تنوعت مادتها التحريرية فضمت إلى جانب الأخبار الحكومية، وما كان ينقل من كتب التراث، مقالات كتبها محررون، وبعض القصائد الشعرية. واقتربت كثيراً من الصحف الأخرى من حيث مادتها وأسلوب تحريرها أيام الثورة العرابية (1881–1882) عندما تولى تحريرها الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وبعض المثقفين من خرجى الأزهر والمدارس الحديثة، ومنذ الاحتلال البريطانى وحتى اليوم تحولت "الوقائع المصرية" إلى جريدة رسمية محضه، تنشر بها القوانين والتشريعات واللوائح الرسمية لإعلام الناس بها، واختفت منها المادة التحريرية تماماً .

النهضة الصحافية فى عصر إسماعيل

كان الخديوى إسماعيل معنياً باستكمال مشروع الدولة الحديثة فى مصر الذى بدأه جده محمد على باشا، وان تغير المناخ الإقليمى والدولى عما كان عليه فى انصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان إسماعيل يعى تماماً ما أصبح للصحافة من أهمية فى أوروبا، ويحرص على أن يبدو بصورة "الحاكم العصرى" أمام الصحافة الأوربية ليعطى مصداقية التصر يح الذى أطلقة أمام قناصل الدول عند تولية الحكم والذى وعد فيه أن يجعل مصر قطعة من أوروبا.

فى هذا السياق اهتم الخيوى إسماعيل برعاية الصحافة العربية المستقلة فى مصر معنوياً ومادياً، وكذلك الصحافة العربية فى الشام وغيرها من البلاد العربية (وان كان أكثر كرماً ورعاية للصحف الأجنبية). فشهد عهده ظهور الصحافة الحرة فى مصر، فأسس الأديب والشاعر عبد الله أبى السعود (تلميذ رفاعة الطهطاوى) صحيفة "وادى النيل" الأسبوعية (عام 1866)، ولكن الخديوى ضاق ذرعاً بإفراطها فى نقد سياسته، فعطلها وأعاد عبد الله أبى السعود إصدارها باسم "نزهة الأفكار"، ولكن ابنه محمد انسى أبى السعود أسس صحيفة ثلث أسبوعية (كانت تصدر كل يومين) عام 1874 هى "روضة الأخبار" التى عمرت حتى عام 1878، وكانت نموذجا لتطور التحرير الصحفى فضمت المقال السياسى، والأخبار، والمقالات الأدبية، والمقالات المترجمة (عن الصحافة الفرنسية فى اغلب الأحوال)، ويدحض وجود هذه الصحف الثلاث المقولة الشائعة عند من يؤرخون للصحافة العربية فى مصر من أن البداية للصحافة الحرة (غير الحكومية) جاءت على أيدى الشوام مثل لويس صابونجى صاحب "النحلة" التى بدأت فى بيروت أسبوعية عام 1870برعاية إسماعيل، وحموى صاحب" شعاع الكوكب" الإسبوعية عام 1876، ثم بشارة وسليم تقلا أصحاب "الأهرام" (1876). فقد لعب المثقفون المصريون من تلاميذ رفاعة الطهطاوى وتلاميذ جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، دورا هاما فى تاريخ الصحافة المصرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وقامت على كواهلهم أعمال التحرير فى الصحف التى صدرت فى ذلك العصر، بما فى ذلك الصحف التى أسسها الشوام فى مصر.

والى جانب الصحافة الحرة كانت هناك صحفاً ومجلات أخرى شبه رسمية سجلت بداية الصحافة المتخصصة فى مصر، مثل مجلة "روضة المدارس" التى صدرت عام 1870 وكانت رائدة الصحافة الثقافية فى مصر، وتولى رئاسة تحريرها على بك رفاعة الطهطاوى، كما صدرت أول مجلة طبية بعنوان "يعسوب الطب" (واليعسوب هو ذكر النحل) عام 1865 وتولى تحريرها محمد على الحكيم. كما صدرت فى نفس العام "الجريدة العسكرية المصرية" وجريدة "أركان الحرب المصرية"، أما الأولى فكانت إعادة إصدار لجريدة أصدرها محمد على عام 1833، والثانية كانت جديدة تماماً، ولعهما من أقدم المجلات العسكرية بالشرق.

والى جانب "الأهرام" كانت" مرآة الشرق" نصف الأسبوعية التى صدرت بالقاهرة عام 1879 وتولى تأسيسها مجموعة من الشوام على رأسهم سليم عنجورىبتشجع من إسماعيل، من أهم الصحف الحرة ذات الطبيعة السياسية، ولعبت دوراً هاماً أيام الثورة العرابية، واستمرت تصدر حتى عام 1885 بعدما انتقلت ملكيتها منذ 1882 (الاحتلال البريطانى) إلى خليل اليازجى وأمين ناصف. كذلك كان من صحف الشوام التى لعبت دوراً هاماً فى الحياة السياسية الصحيفتان اللتان أسسهما أديب اسحق وسليم نقاش، وكانت الأولى" مصر" –جريدة أسبوعية– صدرت بالقاهرة عام 1877 والثانية "التجارة" جريدة يومية صدرت بالإسكندرية عام 1878، وكانتا منبران للتعبير عن الإتجاة المعادى للتدخل الغربى تستلهمان أفكار جمال الدين الأفغانى، وشاركتهما فى هذا الدور جريدة "الوطن" التى صدرت يومية بالقاهرة عام 1877وتولى تحريرها ميخائيل عبد السيد وا إبراهيم ضوى وكانا من تلاميذ الأفغانى المصريين. أضف إلى ذلك أول صحيفة ساخرة فى تاريخ مصر أصدها –فى نفس العام – تلميذ مصرى آخر للأفغانى هو يعقوب صنوع لتعبر عن معارضة سياسة الخديوى إسماعيل تحت جملة عناوين "أبو نضارة" "أبو نضارة زرقا"، "أبو صفارة"، "أبو زمارة"، فقد كان صنوع يصدرها من منفاه فى باريس وترد بالبريد، وكلما صدر قرار بمصادرتها عاد إلى إصدارها وا إرسالها إلى مصر باسم آخر .

ولا شك أن هذه النهضة التى شهدتها الصحافة فى عصر الخديوى إسماعيل كانت نقلة نوعية فى تطور الصحافة العربية فى مصر شملت تنوع المادة، وتنوع المضنون، وتطور التناول والتحرير، والإخراج الصحفى. وقد انعكس ذلك كله على الصحافة المصرية حتى الربع الأول من القرن العشرين (على اقل تقدير)، فقد شهد ذلك العصر دخول التلغراف إلى مصر، ومن ثم الاستفادة من خدمة وكالات الأنباء الدولية (الأوروبية) من خلال البرقيات التى كانت تزود الصحف بالأخبار. وكانت الصحف المصرية تستقى أخبارها –من قبل– من الصحافة الأوربية التى ترد بالبردمتأخرةً ما يزيد عن الأسبوع على تاريخ الصدور، فأصبحت الأخبار المحلية والإقليمية والدولية يطيرها البرق إلى الصحف فى ساعات معدودة، مما أعطى التحرير دفعة قوية دون شك .

الصحافة المصرية والحركة السياسية

كان من الطبيعى أن يكون للصحف دوراً بارزاً فى التعبئة السياسية خلال أحداث الثورة العرابية (1881–1882)، .حيث عبرت الصحف الوطنية المصرية عن مطالب الأعيان والضباط كما دعمت مطالب أعضاء مجلس شورى النواب فى توسيع الحقوق النيابية للأمة، ونقلت تقارير عن الحوادث البارزة للثورة، ولعبت دوراً فى الحشد السياسى والعسكرى لمواجهة نذر العدوان البريطانى التى انتهت بهزيمة الثوار واحتلال البلاد. وتعرض بعض الصحافيين الذين ساندوا الثورة للعقاب، واضطر بعضهم للعيش فى المنفى أو الاختفاء داخل البلاد، مثل عبد الله النديم صاحب جريدة "التنكيت والتبكيت"، وخطيب الثورة، ومحمد عبده محرر الوقائع المصرية، بينما اختار بعض الصحافيين الشوام جانب الاحتلال وتنكروا للثورة، على نحو ما فعل سليم نقاش.

وكان من الطبيعى أن تعانى الصحافة المصرية من ظروف الاحتلال فتحتجب معظم الصحف السياسية التى راجت فى أواخر أيام إسماعيل وأيام الثورة العرابية، إما لفرار أصحابها خارج البلاد، أو لقيام السلطات بإلغاء التراخيص الممنوحة لها. لذلك لم يتجاوز عدد الصحف والمجلات الجديدة التى صدرت فى السنوات العشر الأولى للاحتلال العشرين دورية، كان نحو النصف منها صحفاً متخصصة فى الزراعة، والتجارة، والأدب، والثقافة الصحية، وا إصدارات الجمعيات الدينية الخيرية، والنشرات القانونية وغيرها. أما السنوات العشر الثانية (1892–1902) فقد شهدت صدور 285 صحيفة ومجلة جديدة معظمها لم يعمر طويلاً، فهناك صحف احتجبت بعد صدور بضعة أعداد لأسباب لا دخل للسياسة فيها، من بينها تلك الصحف التى أصدرها بعض الشوام الذين وفدوا إلى مصر فى ظل الاحتلال البريطانى، وأصدروا صحفاً ومجلات تعالج قضايا محلية فى مواطنهم الأصلية بقصد تصديرها إلى الولايات العربية الخاضعة للحكم العثمانى، كما أن من بينها العشرات من الصحف والمجلات التى صدرت فى الكثير من عواصم المديريات ثم احتضرت بسبب محدودية مجال التوزيع، وكذلك العشرات من المجلات الدينية التى أصدرتها الإرساليات التبشيرية المسيحية بالعربية والتى أصدرتها الجمعيات القبطية الأرثوذكسية المعارضة لحركة التبشير المسيحى الكاثوليكى والبروتستانتى. ولكننا نلمح بين تلك الصحف "الهوانم" الأسبوعية التى أصدرها احمد حلمى عام 1900، لعلها كانت أول محاولة مصرية فى مجال الصحافة النسائية، إلى جانب بعض المجلات الفكاهية ومجلات المسامرة مثل "حمارة منيتى" (1897)، "العفريت" التى صدرت فى السنة نفسها، وكذلك

مجلة "السمير الصغير" التى ربما كانت أول مجلة مصرية للطفل، أضف إلى ذلك العديد من صحف الجمعيات والهيئات الأهلية فى مختلف المجالات.

كما شهد العقد الثانى من عهد الاحتلال البريطانى ظهور الصحافة السياسية المشايعة لسياسة الاحتلال، والمروجة لها، والصحافة الوطنية التى تعارض تلك السياسة بوضوح أحياناً، وعلى استحياء أحيانا أخرى، واستمر بعض تلك الصحف الوطنية المعارضة حتى الحرب العالمية الأولى، على حين اختفى بعضها إما قسراً تحت سطوة قانون المطبوعات الذى قيد حرية الصحافة، أواختيارا لعجز أصحابها عن ضمان المساندة المالية لهم. ولم يستمر على الساحة من الصحف التى صدرت فى عصر إسماعيل سوى "الأهرام" الذى وقف موقف الحياد المشرب بروح التأيد للخديوى أيام الثورة العرابية، وكان موقفه من الاحتلال محايداً تماماً فى العقد الأول من عهد الاحتلال، متبنياً لوجهة النظر الفرنسية ومدافعاً عنها فى العقد الثانى، ليعود إلى موقفه الحيادى بعد توقيع الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا عام 1904، وظل محافظاً عل مكانته على الساحة مصدراً للخبر الدقيق، ومقدماً لأهم الخدمات للأوساط المالية والتجارية، ومبتدعاً للخدمات الإخبارية الاجتماعية، وخاصة إعلانات الوفيات التى ظل منفرداً بها –أو يكاد– حتى اليوم .

وجاءت جريدة المقطم اليومية التى تأسست عام 1889 لتعلب دور المروج و المدافع عن السياسة الاحتلالية، ومناهضة لأحلام الوطنية المصرية فى التخلص من الاحتلال، فكانت كما وصفتها الصحافة الوطنية –بحق– جريدة انجليزية ناطقة بالعربية، وكانت سبباً فى بث روح الكراهية للشوام وسبباً لنعتهم بالدخلاء والعملاء فى الصحافة الوطنية، بل وتحملتقسطاً كبيراً من المسئولية عن الموقف المصرى السلبى تجاه الحركة العربية فى المشرق العربى.

وأسس "المقطم" لبنانيان من الموارنة هما: يعقوب صروف وفارس نمر، ولم يكونا غريبين عن الساحة المصرية، فقد قدما إلى مصر أيام الخديوى إسماعيل، وأسسا بتشجيعه ودعمه مجلة علمية ثقافية شهرية عام 1876 هى "المقتطف"، ولم يعرف عنهما الخوض فى مجال السياسة أوالكتابة فيها قبل الاحتلال البريطانى، وقبل أن يعهد إليها المتعمد البريطانى بمهمة إصدار "المقطم" للترويج لسياسة الاحتلال والتصدى لانتقادات المعارضة الوطنية وتفنيدها ودحضها، بل وتحريض سلطات الاحتلال ضدها. لذلك لم يكن غريباً أن تسعى بعض عناصر الأرستقراطية التركية التى تدين بالولاء للأسرة الحاكمة، وتتعاون مع الاحتلال حفاظاً على مواقعها فى السلطة ومصالحها المادية، أن تبحث عن صحيفة تعبر عن وجهة نظرها بأقلام غير أقلامها، وتروج لفكرة الجامعة الإسلامية اجتناباً لتأييد السلطان عبد الحميد الثانى لموقف الوطنين المصريين الذى يستند إلى السيادة العثمانية كأداة لتأكيد بطلان الاحتلال البريطانى لمصر. هذا التغير من النخبة التركية (التى قيل أن مصطفى رياض باشا كان على رأسها) دفعت بالشيخ على يوسف واحمد حافظ عوض إلى تأسيس "جريدة المؤيد" اليومية عام 1889، لنقد سياسة الاحتلال على استحياء، وتأكيد روابط مصر بالدولة العثمانية، والرد على مزاعم "المقطم" .

والى جانب "المؤيد" كانت هناك "الأخبار" اليومية التى أسسها يوسف الخازن عام 1896، "والأهالى" اليوميه (1894) التى عبر من خلالها مؤسسها إسماعيل أباظة عن مصالح الأعيان، و"المنار" الشهيرة التى أسسها عام 1898 الشيخ محمد رشيد رضا للترويج لفكرة الجامعة الإسلامية. وأخيراً "اللواء" اليومية التى أسسها مصطفى كامل عام 1900. والتى تبنت جميعها موقف معارضة السياسة البريطانية فى مصر بدرجات مختلفة من حيث اللين والشدة، كما اختلفت رؤاها للكيفية التى تتبعها مصر للتخلص من الوجود البريطانى. ورغم أنهم أجمعوا على أن ذلك الوجود محدود المدة فقد اختلفوا فى تصوراتهم لحدود تلك المدة فهناك من رآها قد حانت استناداً إلى عدم قانونية ذلك الوجود من وجهة نظر القانون الدولى، وهناك من لم ير بأساً فى بقاء الاحتلال حتى ينتهى من أجندة الإصلاح ويطمئن إلى قدرة المصريين على حكم أنفسهم بأنفسهم، عندئذ يرحل عنها مختاراً لا مجبراً!!

هذا الجدل الذى احتدم بين تلك الصحف المعارضة وبعضها البعض، وبينها وبين الصحف المعبرة عن مصالح الاحتلال، دخل مرحلة جديدة فى إطار الظروف الدولية والإقليمية التى شهدت تغيراً راديكالياً عندما حسمت بريطانيا موقفها من التنافس الفرنسى فى

مصر بإبرام الاتفاق الودى مع فرنسا (1904) والذى فتح صفحة جديدة من النضال الوطنى المناهض للاحتلال، ودفع الاحتلال إلى تنظيم صفوف المتعاونين معه من خلال الأحزاب السياسية، ليفتح بذلك صفحة جديدة من تاريخ الصحافة المصرية.

الصحافة والأحزاب

مع مولد الأحزاب المصرية بأطرها التنظيمية الحديثة عام 1907 بدأت ظاهرة الصحيفة / الحزب، أى الصحيفة التى تعبر عن الحزب وتتماهى فيه أو يتماهى الحزب فيها، حتى لا يكاد يعرف الحزب إلا بما تحمله "ترويسة" الصحيفة من عبارة تشير إلى كونها لسان الحزب، بل تصبح الصحيفة هى الأداة اليتيمة التى يستخدمها الحزب فى الترويج لمواقفه السياسية بين قراء الصحيفة المعبرة عنه وهى ظاهرة استمرت مع الحياة الحزبية فى مصر وما لبثت أن عادت إلى الظهور بعد قيام الحلقة المعاصرة من الحياة الحزبية على أنقاض التنظيم السياسى الأوحد (الاتحاد الاشتراكى العربى)، فلا يكاد من يقرأ الصحيفة الحزبية يعرف شيئا عن الحزب المعبرة عنه وعن مبادئه وبرنامجه، وهو عادة لا يحفل بقراءة شيئ من هذا إذا لمحه على صفحات الجريدة. وهى ظاهرة مصرية محضة وغريبة قد لا نجد لها نظير فى بلاد أخرى، ربما يكون سببها القيادة النخبوية المحدودة للأحزاب المصرية، وعدم الاهتمام الفعلى بتكوين قاعدة جماهيرية يستمد الحزب منها التأييد الشعبى، كما يستمد منها الكوادر التى تكونت تحت جناح الحزب تكويناً سياسياً سوياً.

وفى هذا الإطار أسست صحيفة "الجريدة" اليومية عام 1907 كشركة مساهمة ضمت نخبة من أعيان البلاد المتعاونين مع الاحتلال، الذين يرون أنه يخدم مصالحهم، وان ما يقدمه من إصلاحات تهيئ مصر لحكم نفسها، ونيل استقلالها خطو ة واحدة. وتولى رئاسة تحرير الجريدة احمد لطفى السيد. وأعقب تأسيس الجريدة إعلان قيام "حزب الأمة" الذى ضم نخبة كبار الأعيان ملاك الأراضى الزراعية الذين رأوا فى أنفسهم ممثلين طبيعيين عن المصريين بحكم كونهم رؤساء العائلات الكبرى وأصحاب المصالح الحقيقيه فى البلاد.

وجاء رد الفعل ملبشرا من جانب مصطفى كامل صاحب جريدة "اللواء" الذى كان زعيماً معترفاً به للتيار الوطنى المعادى للاحتلال الذى عرف (جوازاً) بالحزب الوطنى، ولم يكن فى حقيقة الأمر حزباً منظماً، فكلمة "حزب" هنا كانت تعنى "جماعة الوطنين" على نحو ما عرف فى التراث السياسى المصرى عندما أطلق مصطلح "الحزب الوطنى" على جماعة المعارضين للتدخل الأجنبى فى شئون البلاد أيام الخديوى إسماعيل، جاء رد الفعل بتأسيس "الحزب الوطنى" ووضع إطاره التنظيمى برئاسة مصطفى كامل، وكان برنامج الحزب لا يخرج عما عبرت عنه "اللواء" منذ تأسيسها عام 1900 من حيث المطالبة بجلاء الاحتلال استنادا إلى عدم قانونية وجوده، والمطالبة بدستور يحقق المشاركة الشعبية فى إدارة أمور البلاد. وعندما مات مصطفى كامل بعد عام من تأسيس الحزب، خلفه فى رئاسته محمد فريد، الذى لم يكتف بحشد المثقفين ورموز الطبقة الوسطى حول الحزب على نحو ما فعل مصطفى كامل، بل اهتم بحشد العمال والفلاحين، وانعكس ذلك فى الخطاب السياسى للواء الذى ازداد حدة واستفز الاحتلال فأوقف الجريدة عن الصدور، لتعود من جديد عام 1909 باسم "الشعب"، ثم عام 1910 باسم "العلم" وهى ظاهرة شاعت فى تاريخ الصحافة المصرية كلما تعرضت صحيفة لإلغاء ترخيصها .

وكلما تحول "اللواء" إلى لسان حال الحزب الوطنى تحولت "المؤيد" إلى لسان حال حزب جديد يعبر عن مصالح الخديوى عباس حلمى الثانى، سمى "حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية" ضم بعض الموالين للقصر من كبار الموظفين برئاسة الشيخ على يوسف. والى جانب هؤلاء نظم بعض نخبة المثقفين الأتراك والشوام والأقباط ممن تربوا فى المعاهد الأوروبية وتقلدوا بعض المناصب الكبرى فى ظل الاحتلال، نظموا أنفسهم فى حزب تشكل فى صيف 1907 باسم "الحزب الوطنى الحر" بزعامة وحيد بك الأيوبى، والذى أصدر "جريدة الأحرار" الأسبوعية للتعبير عنه، كما أسس بعض أثرياء الأقباط البروتستانت الحزب المصرى بزعامة أخنوج فانوس، والذى اتخذ من صحيفة مصر اليومية التى أصدرها الأخوان قيصر وصموئيل تادرس المنقبادى منبراً للتعبير عن الحزب الذى رفع مطالب طائفية محضة.

وحتى بعد تصفية "الحزب الوطنى" ومطاردة كوادره، واضطرار زعيمه محمد فريد إلى مغادرة البلاد والحياة فى المنفى، وظروف الحرب العالمية والأولى التى قيدت حرية الصحافة، وأخضعتها لرقابة صارمة جعلت الكثير منها يحتجب تماماً عن الصدور، عادت ظاهرة الصحيفة المعبرة عن الحزب السياسى مع ثورة 1919، فقام أمين الرافعى (من قيادات الحزب الوطنى) بإصدار صحيفة "الأخبار" فى 22 فبراير 1920 لتعبر عن المعارضة الوطنية، وتجمع حولها شتات كوادر الحزب الوطنى، وبدورها حفلت صفحات "الأخبار" بالمقالات المعبرة عن المواقف الوطنية المتشددة.

وكان من الطبيعى أن يعبر أنصار الاعتدال فى السياسة الوطنية عن مواقفهم من خلال صحفية هى "الاستقلال" التى أصدرها محمود عزمى فى مايو 1921، وساهم طه حسين فى تحريرها وحين انشق بعض أعضاء "الوفد المصرى" وكونوا حزب "الأحرار الدستوريين" أصدر الحزب جريدة "السياسة" فى 30 أكتوبر 1922 وراس تحريرها محمد حسين هيكل، وكان من كتابها طه حسين ومحمود عزمى وتوفيق دياب وغيرهم.

وكان لابد أن يتخذ "الوفد المصرى" لنفسه صحفاً تعبر عنه بعدما كان يتعمد فى 1919 على "الأخبار" ذات الهوى الوطنى، "والنظام" التى شايعته، و"الوفد المصرى" التى أصدرتها لجنة الوفد المركزية بالقاهرة، فكانت "البلاغ" التى أصدرها عبد القادر حمزة عام 1923 ابرز الصحف المعبرة عن "الوفد المصرى"، وساهم فى تحريرها عباس العقاد. وأصبح البلاغ سجلاً حافلاً لحقبة العشرينات من تاريخ الوفد المصرى والى جانبها "كوكب الشرق" التى أصدرها فى 21 سبتمبر 1924 احمد حافظ عوض، ولعبت الصحفية الأخيرة دوراً بارزاً فى مقاومة الانقلابات الدستورية، مما عرض الصحيفة للتوقف عن الصدور ثم جاءت "المصرى" لتعبر عن "الوفد" فى مرحلته الأخيرة.

واستمرت ظاهرة الحزب المعبرة عن مصالح القصر الملكى فى "حزب الإتحاد" الذى أسسه احمد زيور باشا عام 1924، وأصدر صحيفة" الإتحاد" للتعبير عنه. وعندما قام إسماعيل صدقى باشا بالانقلاب الدستورى عام 1930 شكل حزباً جديداً للقصر سمى "حزب الشعب" وأصدر جريدة "الشعب"، ورغم تولى الأديب الكبير عبد القادر المازنى شئون التحرير، إلا أن الصحيفتين لم يحققا رواجاً لعدم تعبيرهما عن التيار العام للحركة الوطنية المصرية.

أضف إلى ذلك الصحف التى عبرت عن جماعات الرفض السياسى والاجتماعى مثل تلك التى أصدرتها جماعة الإخوان المسلمين (صحيفتى "الإخوان المسلمون" و" الدعوة")، وحزب مصر الفتاة (صحف: "الصرخة" و"الاشتراكية") والإصدارات المختلفة للفصائل المكونة للحركة الشيوعية (صحف: "الملايين" و"الواجب" و"الفجر الجديد" وغيرها).

الصحافة والتطور الاجتماعى والثقافى

إذا كانت الصحافة قد غرقت فى بحار السياسة منذ الاحتلال البريطانى على نحو ما رأينا، وحولت الحياة الحزبية بعضها إلى فناء للتعبير عنها، واثبات وجودها على الساحة السياسية، أو أداة لحشد الجماهير أحياناً – تأييدا لهذا الموقف السياسى أو ذاك، فلا يعنى ذلك أن تاريخ الصحافة المصرية جاء خلواً من المساهمة فى التطور الاجتماعى والثقافى منذ مطلع القرن العشرين (على اقل تقدير)، حيث كانت الصحف هى المنابر التى طرحت من خلالها الأفكار الحديثة التى كان لها أثرها فى الحياة المصرية مثل تحرير المرأة الذى تبنته ودافعت عنه "الجريدة" و"الأهرام" وعارضته "المؤيد" و"اللواء" و"المنار" وكانت "المقتطف" أول من نقل إلى قراء العربية فكرة النشوء والارتقاء عند دارون، كما نقلت العديد من المعارف العلمية الحديثة فى عصر حفل بالاكتشافات العلمية والمخترعات. وكانت "الهلال" نافذة اطل منهاالقارئ العربى على الفكر السياسى والاجتماعى، ولعبت دوراً بارزاً فى إحياء الأدب العربى وتقديم الدراسات النقدية الأولى للتراث.

وحفلت الصحف بحوار دائم حول جديد الفكر بين مؤيد ومعارض كما حدث مع كتاب طه حسين فى "الشعر الجاهلى"، وما دار حوله من حوار انتصر لمبدأ حرية البحث العلمى وحرية الرأى، وكتاب على عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم" الذى زاد من حدة الجدل حوله لمسه لموضوع كان مثار أمل الملك فؤاد لوراثة الخلافة، فجاء الشيخ ليسحب البساط من تحت الفكرة. ذاتها وقضية تنصيب

الملك فاروق بمراسم دينية التى أثارت على نطاق واسع نقاشاً حول نظرية الحق الإلهى فى الحكم ومجافاتها للدستور، والتى خرج فيها الوفد منتصراً للدستور.

وعلى الصعيد الاجتماعى طرحت العديد من الأفكار الخاصة بحقوق العمال وضرورة تحسين الظروف المعيشية فى الريف والحضر والارتقاء بمستوى معيشة المصريين. كما طرحت الأفكار الخاصة بالإصلاح الزراعى وضرورته لتحقيق التوازن فى المجتمع لتفادى ثورة اجتماعية لا تبقى ولا تذر.

وعلى صفحات الصحف المصرية جاءت الدعوة إلى تخليص الاقتصاد المصرى من الهيمنة الأجنبية، وطرحت فكرة إنشاء بنك وطنى منذ أيام الخديوى إسماعيل وأعيد طرحها فى ظروف الأزمة المالية عام 1907، وكان بنك مصر عام 1920 ثمرة لكفاح المصريين من اجل هذه الغاية. وعلى صفحات الصحف المصرية جاءت الدعوة لتأميم قناة السويس منذ عام 1920، وكذلك الدعوة إلى تأميم مصادر الثروة الطبيعية، وضرورة التخلص من السيطرة الأجنبية على اقتصاد البلاد .

وبذلك تحولت الصحيفة من وسيلة لنقل الأخبار (عند صدور الوقائع المصرية) إلى أداة إعلامية تتناول مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ومجال لنشر الإبداعات الأدبية والفنية.

التطور التنظيمى للصحافة

رأينا كيف جاءت نشأةالصحافة برعاية الدولة، ثم تخلصت من تلك الرعايا بعدما عرفت طريقها إلى القارئ مشتركاً أو مشترياً وهى رحلة طويلة استغرقت ثلاثة أرباع القرن (على اقل تقدير)، تطور خلالها فن التحرير الصحفى من النشرة الإخبارية، إلى جريدة متعددة الأقسام والأبواب إلى الأعمدة الثابتة. ومن الاقتصار على صف الجريدة بالحروف إلى استخدام الصور والرسوم الكاريكاتيرية، إلى الصحافة المصورة وصحافة الكاريكاتير إلى الصحافة المتخصصة فى الثقافة والأدب والاقتصاد والرياضة والأزياء، والطرائف وغير ذلك من ألوان التخصص، رحلة طويلة اقتربت من القرنين من الزمان صاحبتها الكثير من التطورات التنظيمية.

وحتى الربع الأول من القرن العشرين (على اقل تقدير) كان الأمر لا يحتاج إلا إلى قدر محدود من المال لإصدار صحيفة، رأس مال يكفى لتأجير مقر للجريدة، ثم تعاقد مع احدى المطابع التجارية لطباعتها، والاعتماد على اكبر عدد ممكن من المشتركين يتم إرسالها إليهم، وطرح جانب منها للبيع من خلال بعض المتعهدين. وهو ما يفسر هذا العدد الكبير من الصحف التى حصل أصحابها على تراخيص بإصدارها، فتجاوز عدد التراخيص التى صدرت فى عهد الاحتلال الثلاثمائة دورية لم يعمر بعضها طويلاً. وبلغ عدد الصحف المرخص لها فى مصر عند قيام ثورة يوليو ما يزيد عن المائة صحيفة!! بما يكشف عن توفر إمكانية إصدار دورية ما، بغض النظر عن ضمان استمرارها فى الصدور، فالأمر لا يتطلب اقتناء أصول مكلفة.

إلى جانب هذا نرى ظاهر الدار الصحفية ذات الطابع المؤسسى التى تصدر أكثر من دورية تعرف طريقها إلى مصر بدءاً "بالأهرام" ثم "أخبار اليوم" و"الهلال" وغيرها من المؤسسات الصحفية التى تطورت قبل ثورة يوليو لتصبح لها مبانيها الخاصة، ومطابعها، وا صداراتها المتعددة، وقنوات التوزيع الخاصة بها (شركات التوزيع)، كما أصبحت هناك مؤسسات نشر ضخمة تتولى إصدار الصحف الخاصة بها، كما تقدم خدماتها للصحف الأخرى التى لازالت تحبو على الطريق على أسس تجارية طبعاً .

وصحب هذا التطور فى هيكل الصحافة تطور آخر فى تكوين الكوادر الصحفية وفى النظرة الاجتماعية لمن يحترف العمل الصحفى. فبعد أن كان المشتغل بالصحافة (حتى مطلع القرن العشرين) إنسانا عجز عن الحصول على وظيفة محترمة، واعتبرت مهنة الجرنالجيه من المهن الدنيئة (كما جاء فى حيثيات حكم المحكمة الشرعية فى قضية زواج الشيخ على يوسف من بنت الشيخ السادات) أصبحت الصحافة تجتذب حملة الشهادات العليا وكبار المثقفين من أمثال احمد لطفى السيد، ومحمود عزمى، وطه حسين وغيرهم من الإعلام، كما أصبحت تجتذب كبار الأدباء والمبدعين.

وبعد أن كان الاشتغال بالصحافة يعتمد على الاستعداد الفطرى لدى من يقدم على الاشتغال بها أصبحت مهنة ذات أصول عملية تتطلب دراستها ولتتيعابها، وخصصت لها الجامعة المصرية معهداً للحصافة، ثم جعلت لها قسماً فى كلية الآداب، تحول بعد سنوات ليصبح نواة لكلية الإعلام، ثم تعددت كليات الإعلام بالجامعات المصرية، واحتلت أقسام الصحافة فيها مكاناً هاماً.

وتغيرت نظرة المجتمع عن الصحفى، فأصبح الاشتغال بالصحافة، والنجاح فى مجالها، وبروز القدرات الفردية سبيلاً للشهرة، يسعى إليه الشباب، لنيل نصيبهم من العمل فى صياغة الرأى العام.

رحلة طويلة جديرة بالتأمل واستخلاص الدروس من ذلك التاريخ الحافل الممتزج بتاريخ مصر.